

ونلاحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإحلام بأن له مُلكَ السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تدليل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس في قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول الملعوب - بفتح الذال - : « لا داعي للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على ردّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً متعددة . فإن حسبناها في ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها في ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسرقة قسيان . . . تعذيب بإقامة الحد ، وفي الآخرة تكون المضرة . إذن فالكلام منطقي مُتسق .

انني أقول دائماً : إياكم أن تُخذعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصي يعصى دون أن يتال عقابه ، لأن من تعود أن يتأبى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرد على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التمرد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف في مواجهة الموت ، وهو بعض من قدرة الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجد للإنسان اختياراً في أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فما من مرتت نفسك على التمرد على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرد على صاحب المنهج وهو الله . ولن نستطيع لا في شكك ولا لولئك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . ولنفتح كل مُتمرد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يتمرد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شيء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ﴾

فِي الْكُفَرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُوا
لِلْكَذِبِ سَمَّعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ
بِحَرْفٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ
أُرِيدَ اللَّهُ فَتَنْتَهُ فَلَئِنْ تَمَلَّكَ لَمُوتَ اللَّهُ شَيْئاً
أَوْ لَتَمُوتَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾

ناتى فى النداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المنادى » أى أنك تطلب
إقباله . فهل تطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف
من ناداهم وهم رُسُلُهُ ، نجد أنه نادى كل الرسل بمشخصاتهم العَلَمِيَّة .
(يا آدم) ، والشخص العَلَمى هو الاسم « وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص
الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يٰإِبْرَاهِيمُ ﴿١٥١﴾ قَدْ صَنَعْتَ آلِهَتَا ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَنْتُحِ أَهْبَطِ بِسَلَامٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَسُوءُكَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَمِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُلُّ الرُّسُلِ ناداهم الحق بِالشَّخْصِ الْعَلَمِيِّ الَّذِي لَا يُعْطَى إِلَّا التَّشْخِيسُ ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ الرُّسُلِ مَا نَادَاهُ اللَّهُ بِاسْمِهِ أَبَدًا ، إِنَّمَا نَادَاهُ اللَّهُ بِالْوَصْفِ الزَّائِدِ عَنْ مُشَخَّصَاتِ الذَّاتِ فَيَقُولُ : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ) ، وَيَقُولُ : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) .

حَقًّا إِنَّ الْجَمِيعَ رُسُلٌ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يُلْفِئَنَا أَنْ عَمَدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَ نَاسِخًا لِلْكُلِّ وَمُؤْمِنًا بِالْكُلِّ ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ التَّادَاءُ بِالْوَصْفِ الزَّائِدِ عَنْ مُشَخَّصَاتِ الذَّاتِ : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ » . وَهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ السَّاعَةُ . وَلِذَلِكَ نَجِدُ خُطَابَ الْحَقِّ لِرَسُولِهِ دَائِمًا : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ » أَوْ : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ » ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّكْرِيمِ .

وَالْحَقُّ يَقُولُ هُنَا : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَجُزُّكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » . أَيْ لَا تَحْزَنَ بِأَرْسُولِ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . وَحِينَ يَخَاطَبُ الْحَقُّ رَسُولَهُ فِي الْأَجْزَنِ ، عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ عَلَى مَاذَا يَكُونُ الْحُزْنُ ؟ . سَبَّحَانَهُ يَوْضَعُ لِرَسُولِهِ : إِيَّاكَ أَنْ تَحْزَنَ لِأَنْ مَعَكَ قَلْبٌ يَتَأَلَّكُ شَرَّ غَضَبِكَ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْتَلُوكَ رُسُلًا وَلَتَعْدُكَ ، إِنْهُمْ لَنْ يَنَالُوا مِنْكَ شَيْئًا .

وقد يكون حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المتسامي الذي قال فيه الحق :

﴿ فَلَمَّا كَ يَنْجِعْ نَفْسَكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝١ ﴾

(سورة الكهف)

لان الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِنْ تَسَاءَلُوا عَنْهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنِ ۝١ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقاً ؟ لا . بل يريد قلوباً ، لان سيطرة القدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للمخالق طائفة . فلا يمكن أن يتأثر الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة في سائر الكون ، ولكن الله أحب أن يأتي عبده - وهو السيد - للإيمان مختاراً ، لان الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثاني هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما في سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فانت تتركه حراً ويأتيك من غور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذي يجي . عن حب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۝١ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفاً وإشفاقاً من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يجوز لك » فأما إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق يتصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ؟

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختلراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « لا يجوز لك الذين يسارعون في الكفر » .

وهذه رُبُوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشيء ، لا في الشيء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجلده بقول : « يسارعون في الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون في دائرة الكفر . ويحملنا أنهم في البداية في الكفر ، يسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « في » في القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا في الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهي ليست أموال المخاطبين ، ولكنها في الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يعلمنا أن السفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتي الحق بالوصف والقيم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره ألا يخزن المال ليأكل منه السفهاء ؛ لأن المال إن أكل منه السفهاء ودفع له الزكاة ، قد ينضب وينفذ . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور في رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال في الحياة حتى لا ينقص بالشفقة . وحتى لا نستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السقف رُشدته ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « في » . وهناك آية الصلب :

﴿وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون في هذه الآية : « لأصلبكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يفهموا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا في تفسير ذلك : لأصلبكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب في المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأرثقنا الربط ، فعمود الثقاب بفوص في الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تعليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب في المصلوب فيه . وتلك هي العلة في وجود « في » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » فكان المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « في » . فإن كانت بـ « إلى » فهي انتقال إلى شيء لم يكن فيه ساعة بذء السرعة ، وإن كانت بـ « في » فهي انتقال إلى صحن الشيء الذي كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، فالإيمان محله القلب ، والإسلام محله الجوارح ، ولذلك قال سبحانه :

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾

(من الآية ١٤ سورة المجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول في الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم في كل يوم مستظهرون منهم أشياء تُدخلهم في الكفر ، لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون في مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، هم إذن صنفان اثنان يسارعان في الكفر ، المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب ، وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصَوِّت إما أن يكون مُتكلياً بالكلام الحق فيجذ من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ، ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ، فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى في الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل : « نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجار » لأن النجار هو من تكون حرفته النجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سماع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هى التسمع ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب سماعون لقرم آخرين لم يأتوك » أى ألقوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟ . لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السماعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحماد والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذى سند من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سماعون للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قرم

آخرين . كأنهم يقومون بالنجس . والتجسس . كما نعلم . يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل في زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب . أي أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذي يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم في الوقت نفسه لا يطيّفون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

اولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذي يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ » . أي أنهم يحرفون الكلام بعد أن استقر في مواضعه ويستخرجونه منها فيحملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

أي أنهم حَرَفُوا الكلام قبل أن يستقر . و سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه « وهم الذين يقولون لا تبعاعهم من جواسيس الاستياع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤنوه فاحذروا » . فكانهم أقبلوا على النبي بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليه الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التي نواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت في الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدْعُونَ أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أي أن التقيين في الأصل هو حكم السماء والذي جعل الناس تنجيه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون في قضية ما حُكماً . وفي القضية المشابهة يحكمون حُكماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد رُفِى أحد أتباع ملك في العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجم هذا الرجل وابتعثوا عن حكم آخر .

ورضع الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحْصِم وجه الزَّان - أى تُسَوَّد وجهه بالحمم وهو الفحم - ونجعل يركب حماراً ووجهه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرُّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُضَيَّرُوا في القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده في استصدار أحكام فيها هواة ولين . وعرضوا عليه بعضاً من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشَدِّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزَّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء رسول الله بالحكم الذي نزل من السماء وهو الرُّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلبده أربعين جلدة وأن تسود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اليس عنديكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتموا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شليبا أمود أبيض أهور يسكن « فذلك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم بيود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحكم النازل في الزَّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالنبي لا إله إلا هو ويحق من أرسل موسى ، ويحق من أنزل التوراة على موسى ، ويحق من فلق البحر ، ويحق من أغرق فرعون ، ويحق من ظللهم بالقيام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزَلْزَل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق . فقال ابن صوريا : نعم نجد الرُّجم للزَّنا . وهنا سب اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حكم مخفف من رسول الله ليُنْقَلُوا الزَّان صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؟ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتهم هذا » . أى التخفيف المراد فخذوه ، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يتبنون التخفيف . فإن وافق الحكم مواهم قالوا : إن عمداً هو الذى حُكِمَ ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يحكمونه .

هذه الواقعة يروىها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية قد زنيا فانتطق رسول الله صلى الله عليه وسلم حق جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على من زنى ؟ قالوا : نسوة وجوهها ونحمتها ونحملها ونخالف بين وجوهها ، ويطاف بها ، قال : « فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حق إذا مر بأية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده ، فرفع يده فإذا تحنها آية الرجم ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمها فلقد رأيت يدها من الحجارة بنحسه » (١) .

إنهم يريدون الحكم السهل المهن اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القود . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى - كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه - أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فظهرت بنو النضير بنى قريظة ، فكانت النضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قريظة وهى الذليلة لم يفيدهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الدية . وكانت قريظة إذا قتلت أحداً من بنى النضير لم يرضوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة لحاكموا إليه فى هذا الأمر فحكم بالتسوية بينهم ، فساءهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكدة للمعنى .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئاً »
والفتنة هي التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ (١٧)

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هي الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أي وضعت
الذهب في بوتقة وحوّله بالحرارة العالية من جسم صلب إلى سائل حتى نستخلصه
من المواد العالقة الشائبة التي فيه ليصير نقياً . والفتنة في ذاتها ليست مضمومة . ولكن
المضموم منها هو النتيجة التي تصل إليها ، أينجح الإنسان فيها أم يرسب ، لأن
الاختبارات التي يمر بها الإنسان كلها هي فتنة ، والذي ينجح تكون الفتنة بالنسبة
إليه طيبة . والذي يرسب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة
بشر أي يريد اختبارهم : أيأتون طوعاً واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان فترة الاختبار حتى يُثبت صفة
للجهوية فسبحانه أراد ذلك . ولا أحد بقادر أن يحمل الإنسان مقهوراً . وقد أراد
الله اختباراً وأن ينال وإن يختبر . أينجح أم يرسب ، أ يكون مؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئاً » . ويجعل سبحانه ذلك قانوناً لحلقه
بمنتهى الرضوخ ، وهناك جانب في الإنسان مَسْخَر ، وجانب آخر مُخَيَّر . « ومن يرد
الله فتنه فلن نملك له من الله شيئاً » . أي أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نوايس الكون
ولن يغير الله نوايس الكون من أجل أي أحد ، لأن النوايس لا بد أن تسير كما
أرادها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث في أحد ، عظمنا نخاف الرّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد
الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أنقذ الله من أجل وجود حبيب
معهم ؟ لا ، وانهمزوا على رغم وجود رسول الله معهم ، لأن الله أراد للسنة الكونية
أن تسير كما هي من أجل إصلاح الأمر . فلو فرض أنهم انتصروا من أجل خاطر
النبي ، ماذا يكون الموقف في أمره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن
أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسنة الله أن تتقد .

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا نَزْرٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة التائبة)

لماذا لم يريد الله أن يطهر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتي أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حقداً ومرضاً لأن قلبه ممتلئ بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكفر ، أو نشأ الكفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هي ما يحدث في كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غضبا عن الله . والاختيار خلقه الله في الإنسان ليصير الإنسان محيراً بين الكفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كونياً ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفوفاً أو هداية . لكن أمر يد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سهوى إما أن يُنفذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُراد كونياً وأشياء مُراد شرعياً . والمُراد الكون هو الذي يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذي يسرق لا يسرق غضبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التي نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توفيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التلفزيون » ، إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذي صنع التلفزيون جعله صالحاً لهذا ولذلك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هي كل ما يكون في ملك الله . والإرادة الشرعية هي كل ما يكون في شرع الله « افعل ولا تفعل » . وما دام هناك أمرٌ كونه وأمر شرعى فالكون له لوجوده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصي ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن الإيمان المؤمن أراد الله كونا ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلقه مختاراً . صار كفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعاً . وإيمان الكافر غير مُراد كونا وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام في المراد كونا وشرعاً . وهذه هي القصة العقلية .

إذن من يريد الله فنته كونا فلا راد لإرادة الله ، فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حر في هذا المبلغ فإن اشترت مصحفاً أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فساكافئك واستأنك على أشياء كثيرة . أما إن اشترت ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » فساغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشتري ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المراد كونا والمراد شرعاً . وبين المراد كونا لا شرعاً . والمراد شرعاً لا كونا .

« أولئك الذين لم يرد الله أن يظهروا قلوبهم » كان ذلك كونا ، لأنه سبحانه خلقهم قابليين للتطهر وتبليين لغيره ، فإن فعلوا أى شيء فهم لن يفعلوه غصبا عن الله ، لذلك ينزل الحق الآية : « لهم في الدنيا عجزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فكان

معنى ذلك أن في قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم في الدنيا خزي . والخزي يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا في مجال هذه الآية : لى خزي رأى فئة ؟ إنيها فتان ؛ المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئاً ينفضح . وعندما يثبتون أى شيء فإن الله يخبر رسوله بما يثبتون .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأُذِبْنَاكُمْ فَلِمَ تَعْرِفْتُمْ مِمَّنْ مِّمَّنْهُمْ وَلَتَعْرِفْتُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : ياتيهم الخزي أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المترفل بعد أن كانوا في المستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علماً لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فاميون لا يعرفون شيئاً . وكان اقتصاد المدينة في أيدي اليهود ، من مال وصناعة وزراعة . وعندها جاء . وعندما باتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتسمى نساؤهم ويقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، ينفضحهم الله ، وكل ذلك خزي ، وليس الخزي هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون في الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمِعُوا لِكَذِبٍ أَكْثَرُونَ لِّلشَّخِصِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

وفي اللغة الفاظ مفردة ، مثل : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ، وعندما تبحث في القاموس عن كلمة « مروة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفي ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لا يشرح هل الجو مكشعر أو صافٍ أو بارء .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبه ، كأن نقول : « الجو صحواء » هنا نتقل من فهم معنى كلمة « جو » ، إلى أننا نسبنا الصحواء إليه . والكلام المقيد يأتي في النسب . ولا تأتي النسب إلا بعد معرفة معاني الألفاظ . والنسب بمعنى أن تنسب شيئاً إلى شيء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المقيد يتلّق في النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يـألك إنسان : « من عندك ؟ » فنقول : « محمد » ، هذا القول أفاد : لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندي » .

إذن هناك نسب ، والنسب هي أن تنسب حكماً إلى شيء إما إيجاباً وإما نفيّاً .

والنسبة تنقسم إلى قسمين : نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل تعتقدها ؟ وهل تستطيع أن تقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علماً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت تعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذي يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل في هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أهل مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذي يعرف الشيء على غير وجهه الصحيح . أما الأمي فهو الذي لا يعرف شيئاً وتجد صعوبة في الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذي يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجاهل - إذن - أن تعرف نسبة تعتقدها وهي غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمل ، لأن الأمل له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، لما الجاهل فيحتاج إلى أن نخلع من أنكلوه الفكر الخاطيء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفي فيها يساوي الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هي الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب المصدق ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتصر اللبس على بعض النسب التي تأتي في بعض من أسلوب القرآن ويقولون : في القرآن كلام لورعنا لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا بَاءَكَ الْمُنْتَفِقُونَ قَالُوا لَسْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طاب كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَسْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أي أن الله يكذب شهادتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هي ما يوافق اللسان ما في القلب .

إذن قوله الحق : « سماعون للكذب أكاذبون للشحت » أي أن عملهم الاستماع

للكذب ، واكل السمحت وكانهم يرفعون إن أكلوا حلالاً ، وأكل صيغة للمبالغة ؛ وتكون إما في الحدث ، وإما في تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكل » ، و« فلان أكره » وهو الإنسان الذي يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة - إذن - إما أن تكون في الحدث وإما في تكرير الحدث .

« أكلون للسمحت » ومادة « سمحت » تعني « استأصل رها » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استعمالاً لم يبق له أثر أو تعدى الاستئصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب « نستطيع استئصال البقعة » ، ونستطيع للمبالغة في استئصالها إلى أن تمت من الثوب . والسمحت استئصال مبالغ فيه للرجة الجور على الأصل قليلاً . أي استأصل الذي جاء ومنه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء المخسرون إلى هذا المعنى في شرح الربا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا في مفهومنا أنه زيادة « ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يتدخل ويستأصل ويأكل ويمحقت أصل المال . وظاهر الربا الزيادة ويأطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاھرھا نقص ، ولكنها غناء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الحق من مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلقت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلقت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألف من الجنيهات ، والذي يأخذ مائة جنيه سد الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتب بل يبقى له عشرة جنيهات .

هناك - إذن - رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف في المصائب والمهلك ويبارك لك فيها أعطاك .

والسمحت هو كل شيء تأخذه من غير طريق الحلال ؛ كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع للقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سمحت .

« ساعون للكذب أكالون للسُّحت » ، وهذا القول دليل على أن أُنْقَتَم اعتادت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن في الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم ساعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والأكل بناء ما به الجارحة لأنه مفهوم لها . مثلها يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالتَّمو - إذن - معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه هل قدر ما يخرج منه ، ثم الشفوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وما داموا ساعين للكذب أكالين للسُّحت ، فهم في بوارٍ دائم ، لأن أكل السُّحت حثية من حيثيات الاستماع المصنَّق للكذب ؛ لأنهم قد بنوا نزوات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض أذاثهم الكذب ؟ بل أذاثهم تستدعي الكذب ، وألستهم تحترقه . وهيونهم تستدعي المحارم ، وأيديهم تستدعي السرقة ، إنها الأبعاض التي بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « ساعون » ، بل قال : « ساعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذباً يُقد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عيناً لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلساً فليس له أن ينقل ما في ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هي مهمته .

« ساعون للكذب أكالون للسُّحت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم فنفخ فيه من روحه ، وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من جبل ، اعتلت الذرات في نفسه على الطبيعة التي خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل في الذرات اختلالاً تكوينياً . وهذا الاختلال التكويني هو الذي جعل أكل الحرام سبباً للكذب . ولو لم

يكن فيه ذلك الاختلال التكويني الذي صنعه بنفسه . لما سمع الكذب ابداً .

لو أنه عندما أكل السُّحْت صار سباعاً للكذب . أو سمع كذباً فصار أكالاً للسُّحْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « أكل للسُّحْت » ، ولم يقل : « صامع للكذب » ؛ ولكنه قال : « سماعون للكذب أكالون للسُّحْت » أي أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل السُّحْت ، فالواحد منهم أخذ حراماً من أول الأمر ، وعندما صار أكالاً وسباعاً للكذب في آن واحد ، اغتلت فِرَات تكوينه . ولم يعد في أحياقه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، وبغريه الكذب ثانية بأن يأكل السُّحْت ، والأمـر دائـر بين سماع كذب وأكل سحـت .

وقضية الكذب هي قضية صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لوازع كوني أو لواقع منهجي تكليفي فهذا يصنع خطلاً في الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل في ذلك جاء بالمثل في أمر حسي حتى نراه جميعاً :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أي أن كل وادٍ تحمّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التي تضادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادي ، وتلك هي الأشياء التي تصنع الزبد ونقول عنه في لغتنا العلمية : « الرغوى » .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وه رابياً ، أي عائماً وحالها وطلغها فوق المياه . لماذا ؟ لأنه مادام زبداً فيه فقاقيع هواء تجعل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ؛ لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمِلْ السَّيْلَ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الزمر)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلون في الماء والمضاد له وهو النار ، فلما رأى بآل يزيد وغشاه يطفو على الماء ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفخ في كبره على قطعة من الحديد يرى الحث ، والمواد الغريبة الممزجة بالحديد والتي تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد في الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الزمر)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الحث طافيا على أصيل الحديد . لكن أيا الباطل كذلك ؟ نطمئنا الحق أنه يحسم الحق فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الزمر)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد يتهوى ويصبح الماء صافيا ، وكذلك الزبد الذي يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليقى صافيا . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العلو ؛ لأن ما ينفع الناس يملك في الأرض .

ولماذا لا يعمل الحق من نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك لجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يغض الباطل الناس ويتبعهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتي إليهم الباطل ويتبعهم ليعتثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندي من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكان الألم يلفتته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلالة العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والالم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وثيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأت الالم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الالم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكفر ونشهد آثار الكفر فساداً في المجتمع ، نتساءل : ما الذي يخلصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذي يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرر دائماً : كلمة الكفر بذاتها هي الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو السُّر ، ومادام الكفر هو السُّر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان في الأصل .

ومادام الحق قد قال : « سيعاون للكذب الأكثون للسُّح » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم في القضية التي جاءوا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم الساعون للكذب الأكثون للسُّح . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لارغبة في معرفة الحق ولا هم يلتزمون العدل . بل جاءوك مظنة نيسير أمر الباطل وأكل السُّح لغرضهم . وقد طلبوا الحكم في قضية الزنا وعندهم في التوراة كان الرجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزنا في التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزاني وركوبه حماراً في الوضع العكسي بحيث يكون وجهه في اتجاه الذيل وقفاً في اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزاني وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمحوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا ساعين للكذب وأكثالين للسُّح . ولأن الذي سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون الضرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق في الآية التي نحن بصدد غرطرتها عنها وبين قول الحق :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

لا تعارض - والبعض يقول : إن في قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضي بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولتنظر إلى الأدلة القرآني لأن المتكلم إليه وحكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلاحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطمانه الله بأنه سيحكمه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكان الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذي ابتغوه عندك ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإياك أن تحمل الضرر منهم ترجيحاً للحكم ، فأنت بالخيار ؛ إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذي أرسلك بحميك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم في هذه الآية يأتي كالقوس في البداية وفي النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ؛ أي بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أي أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتي ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جور مقنن ؛ إذن فـ « أقط » أي أزال جوراً مقنناً وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ؛ الأرض تدور والشمس تزدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التي حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اهدلوا - إذن - في إدارة شؤونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ① وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ② وَالْمَاءَ رَفَعَهَا ③

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ④ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑤ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا في الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ، لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديرُوا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَا تَنْظُرُونَ فِي الْمِيزَانِ ۝ رَأَيْسُوا أَلْوَزَنَ بِالْفِئْطِ وَلَا تُحْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مضطرب ، وغير متصادم ، ويؤدي حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزانا في الأمور الاختيارية ، والمرجعيات الاختيارية هي أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذي وضعه الله .

ثم يلتفت الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمٌ

اللَّهُ تَعَالَى قَوْلُكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ

يَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ ٤٢ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولا من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حكما ؟ لا بد أن في ذلك مصلحة مناقضة لما في التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لتفقدوا الحكم الذي عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا في أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا - والعياذ بالله - أنك قد توفر لهم أكل السحت وسباع الكذب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة ، وهي مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ، لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك في أمر ليس في التوراة لكان الأمر مقبولا ، لكن أن يحكموك في أمر له حكم في التوراة ، وبعد ذلك يطمعك الله عليه